الغلو والفرق الغالية
في الحضارة الإسلامية

تأليف
الدكتور عبد الله سلوم السامرائي

Türkiye Diyanet Vakfı
İslâm Ansiklopedisi
Kütüphanesi
Kayıt 5081
Tasnif No.: 297.82 SA1.G

دار الوسط للنشر

جميع الحقوق محفوظة لدار واسط للنشر

المقدّمة

ان معركة الأمة العربية مع خصومها معركة قديمة امتدت على طـول تاريخها ولازالت ، وقد زاد في هذه المعركة عمقا وسعة ، ان الأمة العربية كانت أمة الرسالات السماوية ، ومنها رسالة الاسلام التي جاءت للناس كافة .

لقد اشتدت المعركة مع الأمة العربية بظهور الاسلام ، وتعددت جوانبها ، وكثرت أطرافها واتسعت رقعتها ، فشملت الأمة العربية بجميع مقومـات وجودها ، ولا زالت عنيفة مستمرة حتى يومنا هذا .

ان ظهور الاسلام كان ايذانا ببزوغ فجر جديد . وان قضية الاسـلام كرسالة ليست مسألة عابرة أو مجرد أمر صدر من الله سبحانه وتعالى لتقوم هذه الأمة بحمل الرسالة والانتقال بها من مكان الى آخر ومن شعب الـى شعوب أخرى .

ان مهمة حمل الرسالة وهداية الناس فيها ، تعبيرا عن قوله تعالى مخاطبا الامة العربية الجديدة « كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعـروف وتنهون عن المنكر » ، مهمة كبيرة ومعقدة ، وقد ازدادت هذه المهمة عمقـا حيث ان هذه الرسالة في لغة معينة وفي أحكام جديدة تهدف الى تغير واقع الحياة تغيرا كليا .

ان مهمة كهذه تتطلب امة واعية تستطيع ان تستوعب ما في الرسـالة وتستطيع ان تنتقل بها الى الآخرين وتحملهم على الاقتناع بها .

ان الرسالة بكل محتوياتها ، من أحكام ومواد قانونية تظل مجرد أحكام مسطرة على شكل حروف وكلمات موزعة هنا وهناك لا حياة فيها ولا تأثـير

ما لم تتفاعل هذه الاحكام والمواد مع الانسان تفاعلا عميقا يكون العقل والوجدان ميدانه ، بحيث تنتهي عملية التفاعل اما الى الرفض واما الى القبول وعند ذلك تتحول تلك المواد والاحكام الى قوى فاعلة متحركة •

من هنا كانت عملية التفاعل بين الامة العربية وبين الاسلام عملية عميقة وشاملة انتهت الى أن معظم الامة العربية قبلتها بوعي وبدونه وكان المؤمنون بها عن وعي قوة هذه الحركة وعلامة وجودها ، فهم الذين تحركوا لحملها وحمايتها ونشرها ، فكان ان عاشت هذه الرسالة بهم وعاشوا بها ولها ، ومن هذا التعايش والتفاعل كان الوجود الجديد الذي تمثل في الانسان العربي المؤمن ، وتمثل في الدولة العربية ، كما تمثل في الحضارة العربية الاسلامية الجديدة •

وهكذا كانت العلاقة بين الامة العربية وبين الاسلام علاقة عضوية ، فالذات العربية كانت اطار هذه الرسالة ، والوجود الذي قامت عليه واستندت اليه ، فكان العرب مادة هذه الرسالة وكانت الرسالة ترجمة لهذه الذات وتعبيرا عنها بلغتها ، كما كانت تعبيرا عن أحكامها ، فقال سبحانه وتعالى « انا أنزلناه حكما عربيا » •

فكان التفاعل هذا قد تسبب في قيام علاقة جديدة بين الانسان وبين عقائده الاولى كما أحدث تغيرا في العلاقات بينه وبين ذاته وتغيرا في العلاقات بينه وبين واقعه ومجتمعه •

لقد تحرك الانسان المؤمن يحمل رسالة الاسلام يريد هداية الناس فالتقى بهم على طول وعرض ساحات واسعة فكان منهم من آمن عن وعي وقناعة وكان منهم من أسلم عن رغبة وطمع ، وكان منهم من أسلم عن رهبة وخوف ، وكان منهم من أسلم تسترا من أجل هدم الاسلام من الداخل ، وكان آخرون قد اعلنوا معارضتهم ورفضهم وصمموا على المحاربة والهدم •

لقد توزعت قوى المعارضة الى مواقف ثلاثة :

موقف توجه الى محاربة الامة العربية في أنسابها ولغتها وحضارتها وثقافتها وماضيها وحاضرها والى جميع مقوماتها وكافة مميزاتها وعمل بها

هدما وتخريبا وفضلت عليها سائر الامم وهذا النوع من المعارضة هو ما نسميه « بالشعوبية » •

لقد استعملت الشعوبية أسلحة مختلفة في محاربتها ، اعتمدت الشتيمة المباشرة والانتقاص السافر واستعملت التشويه والتزوير والتحريف ، وتوجهت الى الصور الحية الرائعة في حياة الامة العربية وعملت على تشويهها وطمس معالمها وأخذت من الصور السوداء وكبرتها وادعت بأن ليس للامة العربية الا هذه الصور • وتوجهت الى بقية الامم وفضلتها على الامة العربية في جميع النواحي • فكانت الشعوبية في معركتها هذه قد استثارت الامة العربية والمسلمين الصادقين في اسلامهم من غير العرب والمنصفين من الشعوب الاخرى من غير هؤلاء واولئك ، فكان رد الفعل عليها واسعا وقويا مما جعل معركتها خاسرة فعادت تجر أذيال الفشل والهزيمة •

وموقف توجه الى محاربة الاسلام محاربة علنية مباشرة فعمد الى هدم مبادىء الاسلام وتشويه أسسه واستعمل في معركته هذه العقائد القديمة والحجج العقلية والفكرة والقلم ولم ينس ان يستعمل السيف ، هذا الموقف هو ما نسميه « بالزندقة » •

الا أن هجوم الزندقة الصريح هذا كان قد أثار السلطة العربية والمسلمين فاندفع هؤلاء بوعي وعنف واستعملوا كل أساليب المواجهة لشل هذه الحركة، وابطال نشاطها وكانت النتيجة ان نكصت هذه الحركة على أعقابها وردت تجر خلفها كثيرا من أذيال الفشل والخذلان ، فوجد الخصوم ان أفضل اسلوب لمحاربة الاسلام هو محاربته من الداخل عن طريق التظاهر به والعمل تحت شعاره وفي ظل اسمه وهذا الاسلوب من المقاومة هو ما نسميه « بالغلو » •

فالغلو اذن اسلوب من أساليب مقاومة الاسلام يهدف الى هدمه وان هذا الاسلوب يعتبر من أخطر وأشد الاساليب فتكا ، لذلك وجد فيه الخصوم من شعوبيين وزنادقة وغيرهم ضالتهم للعمل به لتحقيق أغراضهم •

ان حركة الغلو استطاعت ان تواصل معركتها في حين انكشفت الاساليب الاخرى وتساقطت في الطريق قبل ان تحقق أي هدف من أهدافها •

لم يعلن الغلو تناقضه مع الاسلام ولا محاربته له ، انما كان يسير بخطى

موازية له ، وبخطى تعود اليه فتدخل فيه وتظل تعمل على هدمه ابان عملية الدخول هذه ، وقد تظهر أحيانا بمظاهر اسلامية تسترا واخفاء لمقاصدها ، لذلك استطاعت حركة الغلو عن هذا الطريق التستر على اصولها ومبادئها ووسائلها واغراضها واشخاصها فكانت عملية التستر هذه وسيلتهم البارعة لمواصلة عمليات الهدم والتخريب .

ولم يقف الامر عند هذا الحد ، وانما اعتمد الغلاة المبادىء الاسلامية ذاتها مادة لعملهم فكان القرآن الكريم وكانت أحاديث الرسول وسنته ميادين لنشاطهم وتحركهم .

ان اخطر وسائل الحرب ولاسيما حرب المبادىء والعقائد تلك التي تحارب من داخل المبدأ وباسمه ، وكذلك كانت حركة الغلو أخطر حركة حاربت الاسلام واستطاعت ان تحقق كثيرا من أغراضها بهذه الوسيلة .

تلك كانت أطراف المعركة بين الاسلام وخصومه ، وتلك كانت دوافعها فهي معركة بين وجود حضاري متقدم يعتمد الانسان وسيلة وغاية ويريد أن تكون طاقة الانسان وقدراته من أجل حياة متقدمة وبين قوى أخرى نقيضة لها .

وهكذا كانت عملية الصراع بين جديد متحضر ، وبين قديم متخلف استمر وتطور واتخذ صورا وأساليب متعددة ، فكان هذا البحث محاولة من أجل تصوير هذه المعركة وتقديم نتائجها .

لقد وزعت هذه الدراسة على أربعة فصول :

تناولت في الفصل الاول منها أسباب ظهور حركة الغلو وقد وجدتها تعود الى سببين أساسيين أولهما الانسان وماضيه ومكوناته الفكرية والدينية التي كان عليها قبل ظهور الاسلام والتي التقى بها معه ، فكان هناك تفاعل بين هذا الانسان وبين الاسلام فكانت حالات قبول وكانت حالات رفض وهذه مجال بحثنا فكانت معتقدات الانسان ومقوماته الفكرية والدينية قد دفعت به الى عدم قبول العقيدة الجديدة والى مقاومتها ومعارضتها فكان الغلو اسلوبا نابعا من هذه المعارضة وتعبيرا عنها .

والسبب الثاني كان الاسلام باعتباره نظرية جديدة متكاملة ، فيه مواد تبحث في الحياة وفي ذات الله وفي الانسان وفي النبوة وفي علاقة الانسان بخالقه وعلاقته مع غيره وفيه مقومات أساسية ، كما ان فيه فرائض ومحرمات، كل هذه قدمت للانسان مادة تفاعل معها فكان اولئك الرافضون لها قد وجدوا في هذه المواد مادة للعمل بها فكان القرآن الكريم أساسا لهؤلاء وجدوا فيه آيات للمقاومة واخرى للتستر واخرى للتأويل فكان القرآن وسيلتهم للهجوم به كما كان وسيلتهم للهجوم عليه .

ولما كان الاسلام قد تطلب قيام سلطة تتولى أمره فان هذه السلطة والقائمين عليها وعلاقتهم بالقانون وتطبيقاتهم له كانت مادة اخرى عمل الغلاة بها واستعملوها للهجوم على الاسلام وسلطته عن طريق المطالبة بمفاهيم معينة للسلطة وواجباتها من خلال رأي الاسلام فيها ، فكانت مسألة السلطة وتطابقها مع النظرية عاملا تحرك الغلاة من خلاله ، كما وان حالة الانفصام بين السلطة والنظرية كان عاملا آخر لهذه الحركة .

وكانت الدولة في علاقتها مع الاسلام من خلال الحالة الاقتصادية وقوانينها مادة خصبة تحرك الغلاة باسمها ، فوجدوا في الزكاة وفي مسألة الغنائم وفي العشر والعطاء والجزية والخراج خير مادة عملوا بها وتحت مدلولاتها مطالبة ومعارضة وتفسيرا واحتجاجا ، وانصافا ومساواة ، فكان التشريع الاقتصادي مادة قوية استغلها الغلاة ونفذوا منها للظهور والتحرك المضاد .

وعن طريق علاقة الانسان بالاسلام ومكانته في ضوء نصوصه وجد الغلاة في هذه المسألة مادة غزيرة للعمل بها والنشاط خلفها ، فالانسان هو الوحدة الاساسية التي تمثلت فيها الحركة الجديدة فان اية عملية هدم له أو اسقاط تؤدي الى اسقاط ركن أساسي في البناء الجديد الذي قام بظهور الاسلام ، ولما كانت مكانة الانسان في الاسلام محددة وقد اختلف المسلمون في الاتفاق عليها فان هذا الاختلاف كان مادة عمل من خلالها الغلاة ، ولما وجد الغلاة ان في عملية دفع الانسان عن مكانته ما يكون دفعا للعقيدة عن حدودها كانت هذه القضية محورا تحرك الغلاة من خلاله أيضا .

وفي الفصل الثاني بحثت في معنى الغلو وبدايات ظهوره وتطوره •

ولما كانت حركة الغلو قد عملت في نطاق الاسلام وتحت ظله فقد استعرضت الفرق الاسلامية الرئيسة التي ظهرت متساوقة ومنسجمة مع الاسلام وهي الشيعة والخوارج والمعتزلة والمرجئة وأهل السنة والجماعة ، وحددت مبادىء هذه الفرق من أصول فقهها وعلاقة هذه المبادىء بالمباديء الاسلامية الاساسية ، وتبين لنا ان تلك الفرق تلتقي مع بعضها في المبادىء الرئيسة وان ما بينها من اختلافات انما هي اختلافات في الفروع وليست في الاصول •

وقد اعتمدت معنى الاسلام والايمان الذي حدده الرسول محمد صلى الله عليه وسلم ليكون مقياسا نقيس به المواقف والآراء والاشخاص فنحكم لهم أو نحكم عليهم بموجبه •

وبعدها فصلت الفرق الغالية التي ظهرت في نطاق الشيعة وكانت فرقا كثيرة ، وتلك التي ظهرت في نطاق الخوارج وفي نطاق المعتزلة والمرجئة والسنة •

تعرضت لكل فرقة غالية بشيء من التفصيل فبينت رئيسها والمبادىء والآراء الغالية الخاصة بكل فرقة والاساليب التي اعتمدتها والغايات التي سعت اليها والمناطق التي عملت فيها والفترة الزمنية التي ظهرت خلالها ما استطعت الى ذلك سبيلا رجوعا الى المصادر الاصيلة في هذا المجال •

لقد تبين جليا ان هذه الفرق الغالية تعود الى اصول مشتركة وتعتمد أساليب تكاد تكون متشابهة ، وتهدف الى غايات واحدة ، وان عملية انتشارها على الفرق الاسلامية كلها كانت احدى الوسائل للتستر والتخفي والامعان في ذلك •

وتبين لنا ان الفرق الاسلامية كلها قد امتدت اليها الحركةالغالية وانهذه الفرق الاسلامية بريئة من آراء ومبادىء الفرق الغالية ولا يجوز ان تتحمل الفرق الاسلامية مسؤولية ذلك الغلو •

وعليه لم يبق هناك علاقة بين الفرق الاسلامية والفرق الغالية فلا يجوز

والحالة هذه ان يمتد الاتهام بالغلو والكفر والالحاد الى الفرق الاسلامية بحجة وجود اشخاص أو مواقف أو آراء غالية تعمل تحت اسم هذه الفرقة الاسلامية أو تلك •

ان أمثال تلك الاحكام والاتهامات كانت نتيجة الخلط بين الفرق الاسلامية وبين الفرق الغالية التي تحمل اسمها وتعمل تحت ظله وهذا حكم واتهام لا يجوز قبوله ، فليست هناك من علاقة مبدئية أو دينية بين الشيعة الامامية مثلا وبين الفرق الغالية التي عملت في نطاق الشيعة ، وليس هناك من علاقة بين الامامية والكيسانية أو بينها وبين السبأية أو البيانية ، كما وانه ليست هناك علاقة بين حركة الاعتزال وبين فرقة الخابطية التي تحمل هذا الاسم أيضا •

وبحثت في الفصل الثالث مبادىء الغلو فكانت خمسة مبادىء : الحلول والتناسخ والبداء والتشبيه والتأويل • وان هذه المبادىء كانت قد أمدت الغلاة بمادة أساسية للعمل في سبيل معارضة الاسلام ومقاومة مبادئه ، وقد كانت هذه المبادىء تشكل جانبا أساسيا من التكوين الفكري لحركة الغلو ، كما كان كل مبدأ بذاته وسيلة وغاية فكان كل مبدأ يكون عملية الغلو بشكلها المتحرك •

ولقد عرضت لكل مبدأ من هذه المبادىء مستهدفا معناه وبداياته التاريخية واستعمالاته القديمة ودخوله في الديانة الاسلامية واستعمالاته الجديدة وعلاقة كل مبدأ مع المبادىء الاخرى وارتباط بعض هذه المبادىء بآيات من القرآن فسرها هؤلاء حسب هواهم وبينت خطورة هذه المبادىء فكان هذا الفصل عرضا متكاملا لمبادىء الغلو وتحرك هذه المبادىء نحو أهدافها وبعبارة أدق كانت هذه المبادىء تؤلف ظاهرة الغلو بكل أبعادها ، فكانت الركيزة الفكرية لهذه الحركة ، كما كانت تحتوي أساليب عملها وكانت تفاعلها في ذات الانسان تؤلف قوة المقاومة والتحرك نحو أهداف هذه الحركة •

وتناولت في الفصل الرابع أساليب الغلاة وأهدافهم ورد الفعل عليهم •